تفسير القرآن الحكيم

المشتهر باسم تفسير المنار

هذا هو التفسير الوحيد الجامع بين صحيح المأثور وصريح المعقول ، الذى يبين حكم التشريع ، وسنن الله فى الإنسان ، وكون القرآن هداية للبشر فى كل زمان ومكان ، ويوازن بين هدايته وما عليه المسلمون فى هذا العصر وقد أعرضوا عنها ، وما كان عليه سلفهم المعتصمون بحبلها ، مراعى فيه السهولة فى التعبير ، مجتنبا مزج الكلام باصطلاحات العلوم والفنون ، بحيث يفهمه العامة ، ولا يستغنى عنه الخاصة

وهذه هى الطريقة التى جرى عليها فى دروسه فى الأزهر حكيم الإسلام

الأستاذ الإمام

الشيخ محمد عبده

(رضى الله عنه)

الجزء الأول

(تأليف)

السيد محمد رشيد رضا

منشئ المنار

(حقوق الطبع والترجمة محفوظة لورثته)

الطبعة الثانية فى سنة ١٣٦٦ هـ - ١٩٤٧ م

أصدرتها دار المنار ١٤ شارع الانشاء بالقاهرة

فاتحة تفسير القرآن الحكيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ للهِ الَّذى أَنْزَلَ على عَبده الكتَابَ ولم يَجْعَلْ لَهُ عِوجاً * قَيِّماً لِيُنذرَ بأساً شَديداً مِنْ لَدُنْهُ ، و يُبَشِّرَ المؤمنينَ الذينَ يَعْملون الصَّالحات أنَّ لهمْ أجْراً حسناً ، ما كثينَ فيهِ أبداً * ويُنذِرَ الَّذينَ قالوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً * مَالهمْ به مِنْ علمٍ ولا لآبائِهمْ . كبُرَتْ كلمةً تَخْرُجُ من أفْواههمْ ، إنْ يَقولون إلاَّ كذِباً * (١٨ : ٥١)

أَلم . ذٰلكَ الكتَابُ لاَ رَيْبَ فيه هُدًى لِلْمُتقينَ (٢ : ١) وَإنْ كُنْتُمْ فى رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا على عبدنا فَأتُوا بسُورةٍ من مثلهِ وادْعوا شُهداءكم مِنْ دُونِ اللهِ إنْ كنتم صَادقينَ * فإن لم تَفْعَلوا ولَنْ تَفْعَلوا فاتَّقُوا النَّارَ الَّتى وَقودُهَا النَّاسُ وَالحِجَارَةُ أُعِدَّتْ للكافرينَ (٢ : ٢٢ ، ٢٣)

الٓمٓ . اللهُ لا إلٰهَ إلاَّ هُوَ الحىُّ القَيُّومُ . نَزَّلَ عليك الكتَابَ بالحقِّ مُصَدِّقاً لما بينَ يديهِ . وأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ والإنجيلَ من قَبْلُ هُدًى للنَّاس وأَنزلَ الفُرْقَانَ (٣ : ١) هُوَ الذى أنزلَ عليك الكتابَ مِنْهُ آيات مُحْكَماتٌ هُنَّ أُمُّ الكتاب وَأُخَرُ مُتَشَابِهات ، فأما الَّذينَ فى قلوبهم زَيْغٌ فَيَتَّبِعُون ماتشابَهَ منهُ ابتغاءَ الفتنةِ وابتغاءَ تأويله ، وما يعلم تأويلهُ إلا اللهُ ، والراسخون فى العلم يقولون آمنا بهِ كلٌّ من عند ربِّنا ، وما يذَّكَّرُ إلا أُلُوا الألبابِ (٣ : ٥)

أَلر . كتابٌ أُحكِمَتْ آياتُه ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حكيمٍ خبير * أَنْ لا تَعبُدوا إلا اللهَ ، إننى لكم منهُ نَذِيرٌ وَبشِيرٌ * وَأَن اسْتَغْفِروا رَبَّكم ثُمَّ تُوبوا إليهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتاعاً حسناً إلى أَجَلٍ مُسَمًّى ، ويُؤتِ كلَّ ذِى فَضلٍ فَضْلَهُ ، وَإنْ تَوَلَّوْا فإنى أخافُ عليكم عذابَ يومٍ كبيرٍ * إلى اللهِ مرْجِعُكم وهو على كلِّ شىءٍ قديرٌ (١١ : ١ — ٤)

أَلر . تلك آياتُ الكتاب المبين * إنا أَنزلْناهُ قرآناً عربياً لعلكم تعلقون * نحن نَقُصُّ عليكَ أحسنَ القَصص بما أوحينا إليكَ هٰذا القرآنَ وَإنْ كنتَ من قبلِهِ لَمِنَ الغافلينَ (١٢ : ١ — ٣) لقد كان فى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأولى الألبابِ ، ما كان حديثاً يُفْتَرَى ، وَلٰكِنْ تصديقَ الذى بينَ يَدَيْهِ وتفصيلَ كلِّ شىءٍ وهُدًى ورحمةً لقومٍ يُؤمنونَ (١٢ : ١١١)

وكذٰلكَ أنزلنا إليكَ الكتاب ، فالَّذِينَ آتيناهُمُ الكتابَ يُؤمنون به ، وَمِنْ هٰؤلاء مَن يؤمنُ به . وما يَجْحَدُ بآياتِنَا إلا الكافِرون * وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كتابٍ ولا تَخُطُّهُ بيمينكَ ، إذاً لارتاب المُبْطِلونَ * بلْ هُوَ آياتٌ بَيِّنَاتٌ فى صُدورِ الذين أُوتُوا العلمَ وَمَا يَجحدُ بآياتِنَا إلا الظالِمُونَ (٢٩ : ٤٧ — ٤٩)

كتابٌ أَنزلنَاهُ إليكَ مُبارَكٌ ليَدَّبَّرُوا آياتِهِ ولِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الألْبابِ (٣٨ : ٢٨) أفلا يتدبَّرون القرآن ؟ ولو كانَ من عندِ غيرِ اللهِ لوجَدُوا فيه اختلافاً كثيراً (٤ : ٨١) اللهُ نزَّلَ أَحْسَنَ الحديث كتاباً مُتشابِهاً مثانِىَ ، تَقْشَعِرُّ منْه جُلُودُ الذين يخْشَونَ رَبَّهُمْ ، ثُم تَلِينُ جُلُودُهُمْ وقلوبهم إلى ذكر الله . ذلكَ

هُدَى اللهِ يَهدِى بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَالَهُ مِنْ هَادٍ (٣٩ : ٢٣) لَوْ أَنزلنا هذا القرآنَ على جَبَلٍ لرأيته خاشعاً متصدِّعاً من خشية اللهِ ، وتلكَ الأمثالُ نضربها للناس لعلهم يتفكرون (٥٩ : ٢١)

إنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يصلون على النَّبِيِّ . يا أَيُّهَا الذين آمنوا صَلُّوا عَلَيهِ وَسَلِّموا تسْلِيماً (٣٣ : ٥٦) ما كان محمَّدٌ أبا أحدٍ مِن رجالِكم ، ولكن رَسولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ، وكانَ اللهُ بكلِ شَيءٍ عَلِيماً * يا أَيُّهَا الذين آمنوا اذكروا اللهَ ذِكراً كثيراً ، وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً * هُوَ الَّذِى يُصَلِّى عليكم وملائكتُهُ لِيُخْرِجَكم من الظلمات إلى النُّور . وكان بالمؤمنين رَحِيماً * تحيَّتُهم يَومَ يَلْقَونَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً (٣٣ : ٤٠ ـ ٢٤٤)

أما بعد، فيا أيها المسلمون : إن الله تعالى أنزل عليكم كتابه هدى ونورا ليعلمكم الكتاب والحكمة ويزكيكم ، ويعدَّكم لما يُعِدكم به من سعادة الدنيا والآخرة ، ولم ينزله قانونا دنيويا جافا كقوانين الحكام ، ولا كتابا طبيا لمداواة الاجسام، ولا تاريخا بشريا لبيان الأحداث والوقائع ، ولا سفرا فنيا لوجوه الكسب والمنافع ، فان كل ذلك مما جعله تعالى باستطاعكم ، لا يتوقف على وحى من ربكم . وهذا بعض مما وصف الله تعالى به كتابه فى محكم آياته[1] تدبرها سلفكم الصالح واهتدوا بها فأنجز لهم ماوعدهم من سعادة الدنيا قبل سعادة الآخرة فى مثل قوله (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لا يشركون بى شيئا . ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون (٢٤ : ٥٣) وفى قوله (وكان حقاً علينا نصر المؤمنين (٣٠ : ٤٦) وقوله (ولن يجعل الله

(١) إشارة إلى الآيات السابقة ولنا فتوى فى حكمة إنزال القرآن أوردنا فيها ٢٤ آية من أمثال هذه الآيات و ١٥ حديثا فى معناها فتراجع فى ص ٢٥٨ م ٨ من المنار

للكافرين على المؤمنين سبيلا (٤ : ١٤٠) وقوله (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين (٦٣ : ٨) وقوله ولا تهنوا ولاتحزنوا وأنتم الاعلون إن كنتم مؤمنين (٣ : ٣٩)

وعدهم الله تعالى هذه الوعود فى حالى قلتهم وضعفهم وفقرهم و بعدهم عن الملك والسلطان ، وأنجز لهم ماوعدهم بما قضاه وجعله أثراً للاهتداء بالقرآن .

هدى الله بهذا القرآن العرب ، وهدى بدعوتهم إليه أعظم شعوب العجم ، فكانوا به أئمة الامم ، فبالاهتداء به قهروا أعظم دول الأرض المجاورة لهم · دولة الروم (الرومان) ودولة الفرس ، فهذه محوها من لوح الوجود بهدم سلطانها وإسلام شعبها ، وتلك سلبوها ماكان خاضعا لسلطانها من ممالك الشرق وشعوبه الكثيرة ، ثم فتحوا الكثير من ممالك الشرق والغرب حتى استولوا على بعض بلاد أوربة وألفوا فيها دولة عربية كانت زينة الأرض فى العلوم والفنون والحضارة والعمران

حاربوا شعوبا كثيرة كانت أقوى منهم فى جميع مايحتاج إليه القتال من عدد وعدد ، وسلاح وكراع ، وحصون وقلاع ، و قاتلوها فى عقر دارها ، ومستقر قوتها ، وهم بعداء عن بلادهم ، نائون عن مقر خلافتهم ، و إنما كانوا يفضلون أعداءهم بشىء واحد ، وهو صلاح أرواحهم الذى تبعه صلاح أعمالهم ، والروح البشرى أعظم قوى هذه الارض ، سخر الله تعالى له سائر قواها ومادتها كما قال (٢ : ٢٨ هو الذى خلق لكم ما فى الارض جميعا) (٤٥ : ١٢ وسخر لكم ما فى السموات وما فى الارض جميعاً منه . إن فى ذلك الآيات لقوم يتفكرون)

كان أرقى حكام الروم والفرس وغيرهم علما وفنا وأدبا وسياسة يفسد فى الارض ، و يعبث بالمال والعرض ، أو كما قال الله تعالى (٢ : ٢٠٤ و إذا تولى سعى فى الارض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل ، والله لايحب الفساد) وكان المسلم العربى يتولى حكم بلد أو ولاية ، وهو لا علم عنده بشىء من فنون الدولة ، ولا من قوانين الحكومة ، ولم يمارس أساليب السياسة ، ولا طرق الادارة ، و إنما كل ما عنده من العلم بعض سور من القرآن ، فيصلح من تلك الولاية فسادها ، و يحفظ أنفسها وأموالها وأعراضها ، ولا يستأثر بشىء من حقوقها ، هذا وهو فى حال حرب ، وسياسة فتح ، مضطر لمراعاة تأمين المواصلات مع جيوش أمته وحكومتها ،

وسد الذرائع لانقاض أهلها . و إذا صلحت النفس البشرية أصلحت كل شيء تأخذ به وتتولى أمره ، فالإنسان سيد هذه الأرض ، وصلاحها وفسادها منوط بصلاحه وفساده ، وليست الثروة ولا وسائلها من صناعة وزراعة وتجارة هي المعيار لصلاح البشر ، ولا الملك ووسائله من القوة والسياسة : فان البشر قد أوجدوا كل وسائل الملك والحضارة من علوم وفنون وأعمال بعد أن لم تكن — فهي إذاً تابعة من معين الاستعداد الإنساني ، تابعة له دون العكس ، ودليل ذلك في العكس كدليله في الطرد ، فاننا نحن المسلمين وكثيراً من الشعوب التي ورثت الملك والحضارة عن سلف أوجدها من العدم : ممن أضاعوها بعد وجودها بفساد أنفسهم .

صلحت أنفس العرب بالقرآن إذ كانوا يتلونه حق تلاوته في صلواتهم المفروضة وفي تهجدهم وسائر أوقاتهم — فرفع أنفسهم وطهرها من خرافات الوثنية المذلة للنفوس المستعبدة لها ، وهذب أخلاقها وأعلى هممها ، وأرشدها إلى تسخير هذا الكون الأرضي كله لها ، فطلبت ذلك فأرشدها طلبه إلى العلم بسننه تعالى فيه من أسباب القوة والضعف ، والغنى والفقر ، والعز والذل ، فهداها ذلك إلى العلوم والفنون والصناعات ، فأحيت مواتها ، وأبدعت فيها مالم يسبقه إليها غيرها . حتى قال صاحب كتاب تطور الأمم من حكماء الغرب : إن ملكة الفنون لا تستحكم في أمة من الأمم إلا في ثلاثة أجيال : جيل التقليد ، وجيل الخضرمة ، وجيل الاستقلال ، وشذ العرب وحدهم فاستحكمت فيهم ملكة الفنون في جيل واحد .

قد شاهدنا ولا نزال نشاهد في بلادنا : أن طلب العلوم والفنون مع إهمال التربية المصلحة للنفس لم تحل دون استعباد الأجانب لنا ، كما جرى في دولتي الآستانة والقاهرة وغيرهما . ترى الرجل المتعلم المتفنن يتولى ولاية أو وزارة فيكون أول همه منها تأسيس ثروة واسعة لنفسه وولده لأجل التمتع بالشهوات واللذات والزينة ، وهكذا تفعل كل طبقة من رجال الدولة ، يستنزفون ثروة الأمة بالرشى والحيل وأكل السحت ، و يكون كل مافضل عن شهواتهم بل جل ماينفقونه عليها نصيب الأجانب ، وقد شرحنا هذه الموضوعات من قبل في مواضعها من المنار والتفسير فلا نطيل فيها هنا . و إنما طرقنا هذا الباب لنذكركم أيها القارئون لهذه

الفاتحة بوجوب فهم القرآن والاهتداء به ، وبأن فقهه يتوقف على تفسيره لمن لم يؤت من ملكة لغته وذوق أساليبها وروح بلاغتها ومن تاريخ الاسلام وسيرة الرسول ﷺ وهدى السلف الصالح مايمكنه من فقهه بنفسه .

إنما يفهم القرآن و يتفقه فيه من كان نصب عينه ووجهة قلبه فى تلاوته فى الصلاة وفى غير الصلاة مابينه الله تعالى فيه من موضوع تنزيله ، وفائدة ترتيله ، وحكمة تدبره من علم ونور ، وهدى ورحمة ، وموعظة ، وعبرة وخشوع وخشية ، وسنن فى العالم مطردة . فتلك غاية إنذاره وتبشيره ، و يلزمها عقلا وفطرة : تقوى الله تعالى بترك مانهى عنه ، وفعل ما أمر به بقدر الاستطاعة ، فإنه كما قال (هدى للمتقين)

كان من سوء حظ المسلمين أن أكثر ما كتب فى التفسير يشغل قارئه عن هذه المقاصد العالية ، والهداية السامية ، فنها مايشغله عن القرآن بمباحث الاعراب وقواعد النحو ، ونكت المعانى ومصطلحات البيان ، ومنها ما يصرفه عنه بجدل المتكلمين ، وتخريجات الأصوليين ، واستنباطات الفقهاء المقلدين ، وتأويلات المتصوفين ، وتعصب الفرق والمذاهب بعضها على بعض ، و بعضها يلفته عنه بكثرة الروايات ، وما مزجت به من خرافات الاسرائيليات ، وقد زاد الفخر الرازى صارفا آخر عن القرآن هو ما يورده فى تفسيره من العلوم الرياضية والطبيعية وغيرها من العلوم الحادثة فى الملة على ما كانت عليه فى عهده ، كالهيئة الفلكية اليونانية وغيرها ، وقلده بعض المعاصرين بايراد مثل ذلك من علوم هذا العصر وفنونه الكثيرة الواسعة ، فهو يذكر فيما يسميه تفسير الآية فصولا طويلة بمناسبة كلمة مفردة كالسماء والأرض من علوم الفلك والنبات والحيوان ، تصد قارئها عما أنزل الله لأجله القرآن .

نعم إن أكثر ما ذكر من وسائل فهم القرآن : فنون العربية لابد منها واصطلاحات الأصول وقواعده الخاصة بالقرآن ضرورية أيضا ، كقواعد النحو والمعانى ، وكذلك معرفة الكون وسنن الله تعالى فيه كل ذلك يعين على فهم القرآن

وأما الروايات المأثورة عن النبى ﷺ وأصحابه وعلماء التابعين فى التفسير فمنها ما هو ضرورى أيضاً ، لأن ما صح من المرفوع لايتقدم عليه شىء ، و يليه ما صح عن علماء الصحابة مما يتعلق بالمعانى اللغوية أو عمل عصرهم ، والصحيح من هذا

وذاك قليل . وأكثر التفسير المأثور قد سرى إلى الرواة من زنادقة اليهود والفرس ومسلمة أهل الكتاب، كما قال الحافظ ابن كثير ، وجل ذلك فى قصص الرسل مع أقوامهم ، وما يتعلق بكتبهم ومعجزاتهم ، وفى تاريخ غيرهم كأصحاب الكهف ومدينة إرم ذات العماد وسحر بابل وعوج بن عنق ، وفى أمور الغيب من أشراط الساعة وقيامتها وما يكون فيها و بعدها ، وجل ذلك خرافات ومفتريات صدقهم فيها الرواة حتى بعض الصحابة (رض) ، ولذلك قال الإمام أحمد : ثلاثة ليس لها أصل : التفسير والملاحم والمغازى . وكان الواجب جمع الروايات المفيدة فى كتب مستقلة كبعض كتب الحديث و بيان قيمة أسانيدها، ثم يذكر فى التفسير ما يصح منها بدون سند ، كما يذكر الحديث فى كتب الفقه ، لكن يعزى إلى مخرجه كما نفعل فى تفسيرنا هذا

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى : والاختلاف فى التفسير على نوعين : منه ما مستنده النقل فقط، ومنه ما يعلم بغير ذلك، والمنقول إما عن المعصوم أو غيره ، ومنه ما يمكن معرفة الصحيح منه من غيره ومنه ما لا يمكن ذلك ، وهذا القسم ـ الذى لا يمكن معرفة صحيحه من ضعيفه ـ عامته مما لا فائدة فيه ولا حاجة بنا إلى معرفته ، وذلك كاختلافهم فى لون كلب أصحاب الكهف واسمه ، وفى البعض الذى ضرب به القتيل من البقرة ، وفى قدر سفينة نوح وخشبها ، وفى اسم الغلام الذى قتله الخضر ، ونحو ذلك . فهذه الأمور طريقة العلم بها النقل ، فما كان منها منقولا نقلا صحيحاً عن النبى ﷺ قبل، ومالا ـ بأن نقل عن أهل الكتاب ككعب ووهب ـ وقف عن تصديقه وتكذيبه لقوله ﷺ « إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم » وكذا ما نقل عن بعض التابعين وإن لم يذكر أنه أخذه عن أهل الكتاب ، فمتى اختلف التابعون لم يكن بعض أقوالهم حجة على بعض. وما نقل عن الصحابة نقلا صحيحا فالنفس إليه أسكن مما ينقل عن التابعين، لأن احتمال أن يكون سمعه من النبي ﷺ أو من بعض من سمعه منه أقوى ، ولأن نقل الصحابة عن أهل الكتاب أقل من نقل التابعين ، ومع جزم الصحابى بما يقوله كيف يقال : إنه أخذه عن أهل الكتاب ، وقد نهوا عن تصديقهم ؟

« وأما القسم الذى يمكن معرفة الصحيح منه : فهذا موجود كثير ولله الحمد وإن قال الإمام أحمد : ثلاثة ليس لها أصل : التفسير والملاحم والمغازى . وذلك لأن الغالب عليها المراسيل . وأما ما يعلم بالاستدلال لا بالنقل فهذا أكثر مافيه الخطأ من جهتين حدثتا بعد تفسير الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان » ثم ذكر الجهتين اللتين هما مثار الخطأ (وإحداهما) حمل ألفاظ القرآن على معانى اعتقدوها لتأييدها به ـ أقول: كجميع مقلدة الفرق والمذاهب فى الأصول والفروع المتعصبين لها فانهم قد جعلوا مذاهبهم أصولا والقرآن فرعا لها يحمل عليها ، وهذا شر أنواع البدع وتفسير القرآن بالرأى المذموم فى الحديث (والثانية) التفسير بمجرد دلالة اللغة العربية من غير مراعاة المتكلم بالقرآن ، وهو الله عز وجل ؛ والمنزل عليه والمخاطب به ـ وفصل ذلك بما يراجع فى محله .

فأنت ترى أن هذا الإمام المحقق جزم بالوقف عن تصديق جميع ماعرف أنه من رواة الإسرائيليات ، وهذا فى غير ما يقوم الدليل على بطلانه فى نفسه . وصرح فى هذا المقام بروايات كعب الأحبار ووهب بن منبه مع أن قدماء رجال الجرح والتعديل اغتروا بهما وعدلوها . فكيف لو تبين له ما تبين لنا من كذب كعب ووهب وعزوهما إلى التوراة وغيرها من كتب الرسل ما ليس فيها شىء منه ولا حومت حوله ؟ ـ وكذا ماتقل عن بعض التابعين ، وإن لم يذكر أنه أخذه عن أهل الكتاب ـ يعني بخلاف ما اتفق عليه أهل الرواية من علماء التفسير وغيره منهم ، فانه يكون أبعد من أن يكون عن أهل الكتاب . وإنما الوقف فيما ينقل نقلا صحيحا عن كتب الأنبياء كالتوراة والإنجيل التى عندهم ، لا نصدقهم فيه لاحتمال أنه مما حرفوا فيها ، ولا نكذبهم لاحتمال أنه مما حفظوا منها ، فقد قال تعالى فيهم : إنهم (أوتوا نصيبا من الكتاب)

وأنت ترى أيضاً أنه لم يجزم بما روى عن الصحابة (رض) من ذلك ، وإنما قال إن النفس اليه أسكن مما ينقل عن التابعين . لأن احتمال سماعه من النبى ﷺ أقوى من احتمال سماعه من بعض أهل الكتاب لقلة رواية الصحابة عنهم ، وهذا ينقض قول من أطلق الحكم بأن ما قاله الصحابى الثقة مما لا يعرف بالاستدلال

بل بالنقل له حكم الحديث المرفوع . وقد علم أن بعض علماء الصحابة رووا عن أهل الكتاب، حتى عن كعب الأحبار الذى روى البخارى عن معاوية أنه قال «إن كنا لنبلو عليه الكذب» ومنهم أبو هريرة وابن عباس (رض) ومن الصحابة من روى عن بعض التابعين الذين رووا عن أهل الكتاب فالحق أن كل مالا يعلم إلا بالنقل عن المعصوم من أخبار الغيب الماضى أو المستقبل وأمثاله لا يقبل فى إثباته إلا الحديث الصحيح المرفوع إلى النبي ﷺ وهذه قاعدة الإمام ابن جرير التى يصرح بها كثيرا

هذا و إن كلام ابن تيمية لا ينقض قول الإمام أحمد، فإنه لم يعن به أنه لا يوجد فى تلك الثلاثة رواية صحيحة ألبتة . و إنما يعنى أن أكثرها لا يصح له سند متصل وما صح سنده إلى بعض الصحابة يقل فيه المرفوع الذى يحتج به

وغرضنا من هذا كله أن أكثر ما روى فى التفسير المأثور أو كثيره حجاب على القرآن وشاغل لتاليه عن مقاصده العالية المزكية للأنفس المنورة للعقول ، فالمفضلون للتفسير المأثور لهم شاغل عن مقاصد القرآن بكثرة الروايات ، التى لا قيمة لها سنداً ولا موضوعاً ، كما أن المفضلين لسائر التفاسير لهم صوارف أخرى عنه كما تقدم .

فكانت الحاجة شديدة إلى تفسير تتوجه العناية الأولى فيه إلى هداية القرآن على الوجه الذى يتفق مع الآيات الكريمة المنزلة فى وصفه ، وما أنزل لأجله من الإنذار والتبشير والهداية والإصلاح ، وهو ما ترى تفصيل الكلام عليه فى المقدمة المقتبسة من دروس شيخنا الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده . رحمه الله تعالى وأحسن جزاءه . ثم العناية إلى مقتضى حال هذا العصر . فى سهولة التعبير ، ومراعاة أفهام صنوف القارئين ، وكشف شبهات المشتغلين بالفلسفة والعلوم الطبيعية وغيرها ، إلى غير ذلك مما تراه قريبا ـ وهو ما يسره الله بفضله لهذا العاجز ، وهاك موجزاً من نبأ تيسيره له

كنت من قبل اشتغالى بطلب العلم فى طرابلس الشام مشتغلا بالعبادة ميالا إلى التصوف ، وكنت أنوى بقراءة القرآن الاتعاظ بمواعظه لأجل الرغبة فى الآخرة والزهد فى الدنيا . ولما رأيت نفسى أهلا لنفع الناس بما حصلت من العلم على قلته صرت أجلس إلى العوام فى بلدنا أعظمهم بالقرآن مغلبا الترهيب على الترغيب والخوف على الرجاء ، والانذار على التبشير ، والزهد فى الدنيا على القصد والاعتدال فيها .

فى أثناء هذه الحال الغالبة علىّ ظفرت يدى بنسخ من جريدة العروة الوثقى فى أوراق والذى فلما قرأت مقالاتها فى الدعوة إلى الجامعة الاسلامية و إعادة مجد الاسلام وسلطانه وعزته ، واسترداد ما ذهب من ممالكه ، وتحرير ما استعبد الأجانب من شعوبه ـ أثرت فى قلبى تأثيراً دخلت به فى طور جديد من حياتى وأعجبت جد الإعجاب بمنهج تلك المقالات فى الاستشهاد والاستدلال على قضاياها بآيات من الكتاب العزيز ، وما تضمنه تفسيرها مما لم يحوم حوله أحد من المفسرين على اختلاف أساليبهم فى الكتابة ، ومداركهم فى الفهم . وأهم ما انفرد به منهج العروة الوثقى فى ذلك ثلاثة أمور :

(أحدها) بيان سنن الله تعالى فى الخلق ونظام الاجتماع البشرى ، وأسباب ترقى الأمم وتدليها ، وقوتها وضعفها (ثانيها) بيان أن الاسلام دين سيادة وسلطان ، وجمع بين سعادة الدنيا وسعادة الآخرة ، ومقتضى ذلك أنه دين روحانى اجتماعى ، ومدنى عسكرى ، وأن القوة الحربية فيه لأجل المحافظة على الشريعة العادلة ، والهداية العامة ، وعزة الملة ، لا لأجل الإكراه على الدين بالقوة (ثالثها) أن المسلمين ليس لهم جنسية إلا دينهم ، فهم إخوة لا يجوز أن يفرقهم نسب ولا لغة ولا حكومة .

تلك المقالات التى حببت إلىّ حكيمى الشرق ، ومجددى الاسلام ومصلحى العصر ، السيد جمال الدين الحسينى الأفغانى والشيخ محمد عبده المصرى ، وهما اللذان أنشآ جريدة العروة الوثقى فى باريس سنة ١٣٠١ عقب احتلال الانكليز لمصر فى أواخر سنة ١٢٩٩ وكان الكاتب لتلك المقالات العالية فيها هو الثانى ولكن بإرشاد الأول و إدارته وسياسته ، وهو أستاذه فى هذا المنهج ومربيه عليه .

توجهت نفسى بتأثير العروة الوثقى إلى الهجرة إلى السيد جمال والتلقى عنه وكان قد جاء إلى الآستانة فكتبت إليه بترجمتى ورغبتى فى صحبته وأنه لا يصدنى عنها إلا إقامته فى الآستانة لاعتقادى أنه لا يستطيع طول المقام فيها ، وعللت ذلك بقولى « لأن بلاد الشرق أمست كالمريض الأحمق يأبى الدواء و يعافه لأنه دواء »

و بعد أن توفاه الله تعالى إليه فيها تعلق أملى بالاتصال بخليفته الشيخ محمد عبده للوقوف على اختباره وآرائه فى الاصلاح الاسلامى ، وما زلت أتربص الفرص

لذلك حتى سنحت لى فى رجب سنة ١٣١٥ وكان ذلك عقب إتمام تحصيلى للعلم فى طرابلس ، وأخذ شهادة العالمية أو التدريس من شيوخى فيها . فهاجرت إلى مصر ، وأنشأت المنار للدعوة إلى الإصلاح .

اتصلت بالشيخ فى الضحوة الصغرى لليوم الذى وصلت فى ليله إلى القاهرة فكان اتصالى به من أول يوم كاتصال اللازم البين بالمعنى الأخص بملزومه ، وكان أول اقتراح لى عليه أن يكتب تفسيراً للقرآن ينفخ فيه من روحه التى وجدنا روحها ونورها فى مقالات (العروة الوثقى) الاجتماعية العامة ، فقال : إن القرآن لا يحتاج إلى تفسير كامل من كل وجه ، فله تفاسير كثيرة أتقن بعضها مالم يتقنها بعض . ولكن الحاجة شديدة إلى تفسير بعض الآيات ، ولعل العمر لا يتسع لتفسير كامل . فاقترحت عليه أن يقرأ درساً فى التفسير ، وكان ذلك فى شعبان سنة ١٣١٥ ثم كررت عليه الاقتراح فى رمضان ، يعتذر بما أذكر أهمه هنا .

زرته يوم الجمعة ١٣ رمضان فقرأ لى عبارة من كتاب إفرنسى فى الطعن على الإسلام ، وطفق يرد عليها بعد أن قال : إن هؤلاء الإفرنج يأخذون مطاعنهم فى الإسلام من سوء حال المسلمين ، مع جهلهم هم بحقيقة الاسلام . قال إن القرآن نظيف والإسلام نظيف ، وإنما لوثه المسلمون بإعراضهم عن كل ما فى القرآن واشتغالهم بسفساف الأمور . وطفق يتكلم بهذه المناسبة فى تفسير قوله تعالى (هو الذى خلق لكم مافى الأرض جميعاً) وماذا كان ينبغى للمسلمين أن يكونوا عليه لو اهتدوا بها .

ثم ذكر أن الطاعن ادعى أن المسلمين لم يعلمهم نبيهم من صفات الخالق إلا أنه حاكم قاهر وسلطان عظيم قد أوجب الفتح على أتباعه لأجل قهر الأمم لا لأجل تربيتها . وقال : فأين هذا من تسمية النصارى خالقهم بالأب الدال على الرأفة والعطف ؟ ثم طفق الأستاذ يرد على هذا القول بالكلام على اسم الرب ومافيه من معانى التربية والعطف ، والتفرقة بينه وبين معنى الأب ، وكون طلبه للولد يقتضى شهوته لا محبته له وغير ذلك من شؤون الوالد التى ينزه الله تعالى عن الاتصاف بها وأطال فى ذلك

وههنا دار بينى وبينه ما أذكر ملخصه كما كتبته بعد مفارقة ذلك المجلس وهو :

(قلت) لو كتبت تفسيراً على هذا النحو تقتصر فيه على حاجة العصر وتترك

كل ماهو موجود فى كتب التفسير وتبين ما أهملوه . . .

قال : إن الكتب لاتفيد القلوب العمى. فان كان السيد عمر الخشاب مملوءة بالكتب من جميع العلوم، وهى لا تعلم شيئا منها ، لاتفيد الكتب إلا إذا صادفت قلوبا متيقظة عالمة بوجه الحاجة إليها تسعى فى نشرها . إذا وصل لأيدى هؤلاء العلماء كتاب فيه غير مايعلمون لايعقلون المراد منه ، و إذا عقلوا منه شيئا يردونه ولا يقبلونه ، و إذا قبلوه حرفوه إلى ما يوافق علمهم ومشربهم ، كما جروا عليه فى نصوص الكتاب والسنة التى نريد بيان معناها الصحيح وما تفيده .

« إن الكلام المسموع يؤثر فى النفس أكثر مما يؤثر الكلام المقروء لأن نظر المتكلم وحركاته و إشاراته ولهجته فى الكلام — كل ذلك يساعد على فهم مراده من كلامه ، وأيضا يمكن السامع أن يسأل المتكلم عما يخفى عليه من كلامه فاذا كان مكتوبا فمن يسأل ؟ ان السامع يفهم ٨٠ فى المائة من مراد المتكلم ، والقارىء لكلامه يفهم منه ٢٠ فى المائة على ما أراد الكاتب . ومع ذلك كنت أقرأ التفسير وكان يحضره بعض طلبة الأزهر و بعض طلبة المدارس الأميرية ، وكنت أذكر كثيراً من الفوائد التى تحتاج اليها حالة العصر فما اهتم لها أحد فيما أعلم، مع أنها كان من حقها أن تكتب ، وماعلمت أحداً كتب منها شيئا خلا تلميذين قبطيين من مدرسة الحقوق ، وكانا يراجعانى فى بعض مايكتبان ، وأما المسلمون فلا

« قرأت تفسير سورة العصر فى سبعة أيام ، وكل درس لايقل عن ساعتين أو ساعة ونصف ، بينت فيها وجه كون نوع الإنسان فى خسر إلا من استثنى الله تعالى ، وما المراد بالتواصى بالحق والتواصى بالصبر ، مما لو جمع لكان رسالة حسنة فى تفسير السورة. وماعلمت أحداً كتب من ذلك شيئا إلا أن يكون عبد العزيز[1]

(قلت) إنه يوجد كثير من المتنبهين لحالة العصر و الاسلام فى البلاد المتفرقة وكثير منهم ما نبههم إلا (العروة الوثقى) وأنا لم أتنبه التنبه الذى أنا عليه إلا بها

(قال) إن بعض الناس يوجد فيهم خاصية أنهم يقدرون على الكلام بأى موضوع أمام أى انسان ، سواء كان يدرك الكلام و يقبله أم لا ،وهذه الخاصية كانت موجودة

١) قرأه بعد ذلك فى الجزائر ثم كتبه باقتراحنا ونشرناه فى المنار ووجده

عند السيد جمال الدين يلقى الحكمة لمريدها وغير مريدها وأنا كنت أحسده على هذا لأنى تؤثر فىّ حالة المجلس والوقت فلا تتوجه نفسى للكلام إلا إذا رأيت له محلا. وهكذا الكتابه ، فانى ربما أتصور أن أكتب بموضوع وعندما أوجه قواى لجمع مايحسن كتابته تتوارد على فكرى معان كثيرة ووجوه للكلام جمة ، ثم يأتينى خاطر : لمن ألقى هذا الكلام ؟ ومن ينتفع به ؟ فأتوقف عن الكتابة . وأرى تلك المعانى التى اجتمعت عندى قد امتص بعضها بعضا حتى تلاشت ، ولا أكتب شيئا .

« إن حالة المخاطب تؤثر بى جداً ، ولذلك لا أتكلم بشىء عن حالة الإسلام عندما أجتمع بهؤلاء العلماء ، لأن أفكارهم منصرفة عن ذلك بالكلية ، ولذلك لا يعملون شيئا مع سعة وقتهم . وعند قراءة التفسير كنت أتكلم على حسب حالة الحاضرين لأنى لا أطالع عند ما أقرأ [1] لكنني ربما أتصفح كتاب تفسير إذا كان هناك وجه غريب فى الاعراب أو كلمة غريبة فى اللغة . فاذا حضرنى جماعة من البلداء الخاملى الفكر أخالّ لهم المعنى بكلمات قليلة . وإذا كان هناك من يتنبه لما أقول ويلقى له بالا يفتح علىّ بكلام كثير

(قلت) إن الزمان لا يخلو ممن يقدر كلام الإصلاح قدره وإن كانوا قليلين وسيزيد عددهم يوما فيوما ، فالكتابة تكون مرشداً لهم فى سيرهم . وإن الكلام الحق وإن قل الآخذ به والعارف بشأنه ، لابد أن يحفظ وينمو بمصادفة المباءة المناسبة له وهو مقتضى ناموس (أى سنة) الانتخاب الطبيعى ، كما حفظت (العروة الوثقى) فإن أوراقها الأصلية الضعيفة قد بليت لكن مافيها من المقالات البديعة المثال والفوائد العظيمة قد حفظت فى الطروس والنفوس . الخ

ولم أزل به حتى أقنعته بقراءة التفسير فى الأزهر فاقتنع وبدأ بالدرس بعد ثلاثة أشهر ونصف أى فى غرة المحرم سنة ١٣١٧ وانتهى منه فى منتصف المحرم سنة ١٣٢٣ عند تفسير قوله تعالى (وكان الله بكل شىء محيطا) من الآية ١٢٥ من سورة النساء . فقرأ زهاء خمسة أجزاء فى ست سنين ، إذ توفى لثمان خلون من جمادى الأولى منها رحمه الله تعالى وأثابه

كانت طريقته فى قراءة الدرس على مقربة مما ارتآه فى كتابة التفسير ، وهو

(١) لعله قال : قبل أن أقرأ يعنى أنه لا يستعد لها بالمطالعة

أن يتوسع فيه فيما أغفله أو قصر فيه المفسرون ، ويختصر فيما برزوا فيه من مباحث الألفاظ والإعراب ونكت البلاغة ، وفى الروايات التى لا تدل عليها ولا تتوقف على فهمها الآيات ، ويتوكأ فى ذلك على عبارة تفسير الجلالين الذى هو أوجز التفاسير ، فكان يقرأ عبارته فيقررها أو ينتقد منها ما يراه منتقداً ، ثم يتكلم فى الآية أو الآيات المنزلة فى معنى واحد بما فتح الله عليه مما فيه هداية وعبرة .

وكنت أكتب فى أثناء إلقاء الدرس مذكرات أودعها ما أراه أهم ما قاله وأحفظ ما أكتب لأجل أن أبيضه ، وأمده بكل ما أتذكره فى وقت الفراغ ، ولم ألبث أن اقترح علىّ بعض الراغبين فى الاطلاع عليه من قراء المنار فى البلاد المختلفة ومن الحريصين على حفظه من الاخوان بمصر أن أنشره فى المنار . فشرعت فى ذلك فى أول المحرم سنة ١٣١٨ وذلك فى المجلد الثالث من المنار ، وكنت أولا أطلع الاستاذ الإمام على ما أعده للطبع كلما تيسر ذلك بعد جمع حروفه فى المطبعة وقبل طبعه . فكان ربما ينقح فيه بزيادة قليلة أو حذف كلمة أو كلمات ، ولا أذكر أنه انتقد شيئا مما لم يره قبل الطبع ، بل كان راضيا بالمكتوب بل معجبا به . على أنه لم يكن كله نقلا عنه ومعزواً إليه ، بل كان تفسيراً للكاتب من إنشائه اقتبس فيه من تلك الدروس العالية جلّ ما استفاده منها ، لذلك كنت أعزو إليه القول المنقول عنه إذا جاء بعد كلام لى فى بيان معنى الآية أو الجملة على الترتيب ، فإذا انتهى النقل وشرعت بكلام لى بعده قلت فى بدئه (أقول) ولم يكن هذا التمييز ملتزما فى أول الامر بل يكثر فى الجزء الأول مالا عزو فيه ، ومنه ما هو مشترك بين ما فهمته منه ومن كتب التفسير الأخرى أو من نص الآية على أننى عبرت عنه بأمالى مقتبسة

ولما كان رحمه الله تعالى يقرأ كل ما أكتبه ، إما قبل طبعه وهو الغالب ، وإما بعده وهو الاقل ، لم أكن أرى حرجا فيما أعزوه اليه مما فهمته منه وان لم أكن كتبته عنه فى مذكرات الدرس ، لان إقراره إياه يؤكد صحة الفهم وصدق العزو . وبعد أن توفاه الله تعالى صرت أرى من الأمانة أن لا أعزوا اليه إلا ما كتبته عنه أو حفظته حفظا ، وصرت أكثر أن أقول : قال ما معناه ، أو ما مثاله ، أو ما ملخصه ، مثلا ، على أننى أعتقد أنه لو بقى حيا واطلع عليه لاقره كله .

وقد بدأت فى حياته بتجريد تفسير الجزء الثانى من المنار وطبعه على حدته وتوفى قبل طبع نصفه ، فهو قد قرأ ماطبع منه مرتين . وقد اشتد شعورى بعدذلك بأن علىّ وحدى تبعة تأليف تفسير مستقل وتبعة إيداعه ما تلقيته عن هذا العالم الكبير المشرق البصيرة ، وذى النصيب الوافرمن إرث نبى الله داود عليه السلام الذى قال الله تعالى فيه (وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب) وتبعة الأمانة فى النقل بالمعنى أثقل من تبعة تحرى الفهم الصحيح وأدائه ببيان فصيح

وسبب البدء بطبع الجزء الثانى : أن الأول كان مختصراً وغير ملتزم فيه ماالتزمته فيما بعده من تفسير جميع عبارات الآيات وذكر نصوصها ممزوجة فيه . ولذلك اقترحت على الاستاذ أن يعيد النظر فيه ويزيدفيه مايسنح له من زيادة أو إيضاح ، ولا سيما إيضاح ما انتقد عليه إجماله من الكلام فى الملائكة والشياطين وتأويل قصة آدم . فقرأ النصف الأول منه بعد نسخه له وزاد فيه مايراه القارىء معزواً إلى خطه ومميزاً بوضعه بين علامتين بهذا الشكل [ ] وزدت أنا فى جميع الجزء زيادات غير قليلة صاربها موافقاً لسائر الأجزاء فى أسلوبه وكنت أميز زيادتى الأخيرة عن أقوالى التى أسندتها إلى نفسى أولا فى حالى حياة الأستاذ بقولى : وأزيد الآن ، أو وأقول الآن ، ثم تركت ذلك واكتفيت بكلمة (أقول)

هذا وإننى لما استقللت بالعمل بعد وفاته خالفت منهجه رحمه الله تعالى بالتوسع فيما يتعلق بالآية من السنة الصحيحة ، سواء كان تفسيراً لها أوفى حكمها ، وفى تحقيق بعض المفردات أو الجمل اللغوية والمسائل الخلافية بين العلماء ، وفى الاكثار من شواهد الآيات فى السور المختلفة ، وفى بعض الاستطرادات لتحقيق مسائل تشتد حاجة المسلمين إلى تحقيقها ، بما يثبتهم بهداية دينهم فى هذا العصر ، أو يقوى حجتهم على خصومه من الكفار والمبتدعة ، أو يحل بعض المشكلات التى أعيا حلها بما يطمئن به القلب وتسكن إليه النفس ، وأستحسن للقارىء أن يقرأ الفصول الاستطرادية الطويلة وحدها فى غير الوقت الذى يقرأ فيه التفسير ، لتدبر القرآن والاهتداء به فى نفسه ، وفى النهوض بإصلاح أمته ، وتجديد شباب ملته : الذى هو المقصود بالذات منه ، وأسأله أن يخصنى والاستاذ بدعواته الصالحة ؟

محمد رشيد رضا

مقدمة التفسير

﴿ المقتبسة من درس الأستاذ الإمام بالمعنى ، مع البسط والإيضاح ﴾

التكلم فى تفسير القرآن ليس بالأمر السهل ، وربما كان من أصعب الأمور وأهمها ، وما كل صعب يترك . ولذلك لاينبغى أن يمتنع الناس عن طلبه . ووجوه الصعوبة كثيرة . أهمها : أن القرآن كلام سماوى تنزل من حضرة الربوبية التى لايكتنه كنهها : على قلب أكمل الأنبياء . وهو يشتمل على معارف عالية ، ومطالب سامية ، لايشرف عليها إلا أصحاب النفوس الزاكية ، والعقول الصافية ؛ وإن الطالب له يجد أمامه من الهيبة والجلال ، الفائضين من حضرة الكمال ، مايأخذ بتلبيبه ، ويكاد يحول دون مطلوبه ، ولكن الله تعالى خفف علينا الأمر بأن أمرنا بالفهم والتعقل لكلامه ، لأنه إنما أنزل الكتاب نورا وهدى ، مبينا للناس شرائعه وأحكامه . ولا يكون كذلك إلا إذا كانوا يفهمونه .

والتفسير الذى نطلبه هو فهم الكتاب من حيث هو دين يرشد الناس إلى ما فيه سعادتهم فى حياتهم الدنيا وحياتهم الآخرة فإن هذا هو المقصد الاعلى منه وما وراء هذا من المباحث تابع له وداء أو وسيلة لتحصيله

التفسير له وجوه شتى (أحدها) النظر فى أساليب الكتاب ومعانيه ، وما اشتمل عليه من أنواع البلاغة ليعرف به علو الكلام وامتيازه على غيره من القول . سلك هذا المسلك الزمخشرى . وقد ألمّ بشىء من المقاصد

الأخرى ونحا نحوه آخرون (ثانيها) الاعراب . وقد اعتنى بهذا أقوام توسعوا فى بيان وجوهه وما تحتمله الالفاظ منها (ثالثها) تتبع القصص وقد سلك هذا المسلك أقوام زادوا فى قصص القرآن ما شاءوا من كتب التاريخ والاسرائيليات . ولم يعتمدوا على التوراة والانجيل والكتب المعتمدة عند أهل الكتاب وغيرهم بل أخذوا جميع ما سمعوه عنهم من غير تفريق بين غث وسمين ولا تنقيح لما يخالف الشرع ولا يطابق العقل (رابعها) غريب القرآن (خامسها) الأحكام الشرعية من عبادات ومعاملات والاستنباط منها . وقد جمع بعضهم آيات الأحكام وفسروها وحدها . ومن أشهرهم أبو بكر ابن العربي . وكل من يغلب عليهم الفقه من المفسرين يعنون بتفسير آيات أحكام العبادات والمعاملات أكثر من عنايتهم بسائر الآيات (سادسها) الكلام فى أصول العقائد ومقارعة الزائغين ومحاجة المختلفين . وللامام الرازى العناية الكبرى بهذا النوع (سابعها) المواعظ والرقائق . وقد مزجها الذين ولعوا بها بحكايات المتصوفة والعباد ، وخرجوا ببعض ذلك عن حدود الفضائل والآداب التى وضعها القرآن (ثامنها) ما يسمونه بالإشارة . وقد اشتبه على الناس فيه كلام الباطنية بكلام الصوفية . ومن ذلك التفسير الذى ينسبونه للشيخ الأكبر محيى الدين بن عربى . وإنما هو للقاشانى الباطنى الشهير . وفيه من النزعات ما يتبرأ منه دين الله وكتابه العزيز .

وقد عرفت أن الاكثار فى مقصد خاص من هذه المقاصد يخرج بالكثيرين عن المقصود من الكتاب الالهى ويذهب بهم فى مذاهب تنسيهم معناه الحقيقى . لهذا كان الذى نعنى به من التفسير هو ماسبق ذكره

أى من فهم الكتاب من حيث هو دين ، وهداية من الله للعالمين ، جامعة بين بيان مايصلح به أمر الناس فى هذه الحياة الدنيا ، وما يكونون به سعداء فى الآخرة ، — و يتبعه بلا ريب : بيان وجوه البلاغة بقدر مايحتمله المعنى وتحقيق الإعراب على الوجه الذى يليق بفصاحة القرآن و بلاغته — أى عند الحاجة إلى ذلك كالمسائل التى عدوها مشكلة ، وربما نشير أحيانا إلى الإعراب من غير تصريح بعبارات النحو الإصطلاحية ، كما نفعل ذلك فى بعض نكت البلاغة ، أو قواعد الأصول ، حتى لا تكون الاصطلاحات شاغلا للقارىء عن المعانى ، صارفة له عن العبرة .

ويمكن أن يقول بعض أهل هذا العصر : لاحاجة إلى التفسير والنظر فى القرآن ، لأن الأئمة السابقين نظروا فى الكتاب والسنة واستنبطوا الأحكام منهما ، فما علينا إلا أن ننظر فى كتبهم ونستغنى بها . هكذا زعم بعضهم . ولو صح هذا الزعم لكان طالب التفسير عبثا ، يضيع به الوقت سدى وهو — على مافيه من تعظيم شأن الفقه — مخالف لإجماع الأمة من النبى صلى الله عليه وسلم إلى آخر واحد من المؤمنين ، ولا أدرى كيف يخطر هذا على بال مسلم ؟

الأحكام العملية التى جرى الاصلاح على تسميتها فقهاً هى أقل ماجاء فى القرآن ، وأن فيه من التهذيب ودعوة الأرواح إلى مافيه سعادتها ورفعها من حضيض الجهالة إلى أوج المعرفة ، و إرشادها الى طريقة الحياة الإجتماعية : ما لايستغني عنه من يؤمن بالله واليوم الآخر ؛ وما هو أجدر بالدخول فى الفقه الحقيق ، ولا يوجد هذا الإرشاد إلا فى القرآن ، وفيما أخذ منه ، كإحياء العلوم حظ عظيم من علم التهذيب ، ولكن سلطان القرآن

على نفوس الذين يفهمونه وتأثيره فى قلوب الذين يتلونه حق تلاوته لايساهمه فيه كلام ، كما أن الكثير من حكمه ومعارفه لم يكشف عنها اللثام ، ولم يفصح عنها عالم ولا إمام ، ثم إن أئمة الدين : قالوا إن القرآن سيبقى حجة على كل فرد من أفراد البشر إلى يوم القيامة . ومن أدلة ذلك حديث « والقرآن حجة لك أو عليك » ولا يعقل إلا بفهمه ، والإصابة من حكمته وحكمه .

خاطب الله بالقرآن من كان فى زمن التنزيل ، ولم يوجه الخطاب إليهم لخصوصية فى أشخاصهم ، بل لأنهم من أفراد النوع الانسانى ، الذى أنزل القرآن لهدايته . يقول الله تعالى « يا أيها الناس اتقوا ربكم » فهل يعقل أنه يرضى منا بأن لانفهم قوله هذا ونكتفى بالنظر فى قول ناظر نظر فيه ، لم يأتنا من الله وحى بوجوب اتباعه لاجملة ولا تفصيلا ؟ كلا إنه يجب على كل واحد من الناس أن يفهم آيات الكتاب بقدر طاقته لافرق بين عالم وجاهل . يكفى العامى من فهم قوله تعالى « قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون » الخ : مايعطيه الظاهر من الآيات ، وأن الذين جمعت أوصافهم فى الآيات الكريمة لهم الفوز والفلاح عند الله تعالى ، ويكفى فى معرفة الأوصاف : أن يعرف معنى الخشوع والاعراض عن اللغو ، وما لاخير فيه والإقبال على مافيه فائدة له دنيوية أو أخروية ، وبذل المال فى الزكاة والوفاء بالعهد ، وصدق الوعد ، والعفة عن إتيان الفاحشة ، وأن من فارق هذه الأوصاف إلى أضدادها فهو المعتدى حدود الله ، المتعرض لغضبه ، وفهم هذه المعانى مما يسهل على المؤمن من أى طبقة كان ، ومن أهل أى لغة كان . ومن الممكن أن يتناول كل أحد من القرآن بقدر مايجذب نفسه إلى الخير ، ويصرفها عن الشر . فإن الله تعالى أنزله لهدايتنا وهو يعلم منا كل